

موقف أحمد مكّي الأنصاري من منهج النحاة في إقامة الدليل النحوي  
**Ahmad Makki Al-Ansari's position from the grammar  
approach in establishing the grammar evidence**

\* أحمد قرومي

guerroumi ahmed

جامعة بن يوسف بن خدة - الجزائر 1 (الجزائر)

university of algiers- Algeria

a.guerroumi@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2021/03/30	تاريخ القبول: 2020/10/02	تاريخ الإرسال: 2020/04/20
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

إن نظرة أحمد مكّي الأنصاري إلى منهج النحاة المتقدمين تختلف اختلافاً كبيراً عن المنهج العام الذي سار عليه جل الدارسين بين القديم والحديث، وذلك من خلال الطعن في آراء النحاة منذ بدايات نشأة الدرس النحوي، خاصةً ما تعلق بالاستشهاد القرآني وتوظيفه في إقامة الدليل النحوي، وإن هذه النظرة المغايرة تبعث في النفوس الكثير من التساؤلات التي تتعلق بهذه القضية المهمة في الدراسات النحوية فما هو موقف أحمد مكّي الأنصاري من منهج النحاة في إقامة الدليل النحوي؟ وما هي مطاعنه وما أخذه على الدرس النحوي؟

الكلمات المفتاح: منهج النحاة، الدليل النحوي، النحو العربي

**Abstract :**

Ahmed Makki Al-Ansari's view of the approach of advanced grammarians differs greatly from the general approach that the majority of scholars have followed between the old and the modern, by challenging the opinions of the grammarians since the beginnings of the grammatical lesson, especially with regard to the Quranic illustrations and its use in establishing the grammatical evidence. The different view raises many questions in the souls regarding this important issue in grammatical studies. What is Ahmad Makki Al-Ansari's position on the grammarians' approach to establishing the grammatical evidence? What are its challenges and drawbacks on the grammatical lesson?

**Key words:** Grammarians Approach, Grammatical evidence, Arabic grammar

\* أحمد قرومي a.guerroumi@univ-alger.dz



## المقدمة :

إذا نظرنا إلى آراء الدكتور أحمد مكي الأنصاري<sup>1</sup> في ميزان النقد النحوي نجد أنه اعتمد الكثير من الآراء والمواقف التي كانت تحمل في طياتها العديد من المواقف المتناقضة والمتباينة، من خلال مؤلفاته المختلفة والتي كانت في نهاية المطاف سبيلاً إلى دعوته إلى نظرية نحوية جديدة أسماها نظرية النحو القرآني، وإذا أمعنا النظر في تلك الآراء والمواقف نجد أنها تصب دائماً في إقامة هذه النظرية والدعوة الصريحة إليها، ولقد انتقد منهج النحاة المتقدمين ووصفهم بأوصاف لا تليق بجمالة قدرهم وفضلهم وهم الذين كان لهم السبق في إقامة صرح النحو وبناء قواعده المحكمة إلا أن الأنصاري انتقد منهج النحاة بين التصريح والتلميح، وأحياناً يطعن فيهم طعناً مباشراً، في إشكالات وتساؤلات تجلت في مؤلفاته إذ يقول: "وليت الأمر وقف عند النحويين، إذن لقلنا إنهم يتعصبون لمذاهبهم وقواعدهم النحوية والعصبية تعمي وتصمم ولكن الأمر جاوز كل حد وانتشرت العدوى بين المفسرين كذلك، ماذا أقول لهؤلاء النحاة، وأولئك المفسرين؟ ماذا أقول لهؤلاء النحاة وأولئك المفسرين الذين داروا في فلك النحويين<sup>2</sup>، وإن الإجابة على هذه التساؤلات تحمل الكثير من التناقض وهو ما نجيب عنه في هذا المقال سائلين التوفيق من الله العلي القدير.

## منهج النحاة المتقدمين وموقف احمد مكي الأنصاري منه :

لقد نشأ النحو العربي على أيدي علماء بارزين كان لهم الفضل والمكانة العلمية والاصطفاء لهذا الفن، والتوفيق من الله تعالى لخدمة العربية والقرآن الكريم، وكان البعض منهم ينتمي إلى أهل اللغة كأمثال عيسى بن عمر وأبي عمر بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب، فاهتمامهم بالقراءات دفعهم إلى دراسة النحو منذ وقت مبكر للموازنة بين ما سمعوه من القراءات القرآنية وما ورد في كلام العرب الأصيل<sup>3</sup>، وبجهود كل من الخليل بن أحمد وعيسى بن عمر الثقفي وأبي عمر ابن العلاء استقام للنحو صلبه، وقوي عوده، وظهرت معالمه وتفرعاته وحدد إطاره العام، ومما لاشك فيه أن النحو قد نشأ في ظلال القرآن الكريم، وعلى هذا السبيل سار النحاة في مسلك التقعيد النحوي بالتوازي مع القراءات القرآنية، وبين السماع اللغوي العام والمتمثل في أشعار العرب وخطبهم ونثرهم وبين لغات القبائل المختلفة والتي كان لها الاشتراك التام في الوضع اللغوي، لأن القرآن الكريم أنزل على سبعة أحرف، مراعيًا بذلك التمايز اللغوي

بين لغات العرب وقبائلهم، على غرار لغة قريش التي كانت تمثل اللغة المشتركة وهي اللغة العامة في التقعيد النحوي .

وإن السمات البحثية التي أشار إليها الأنصاري نجد معالمها في أصول المدرستين البصرية والكوفية، وهي أساس الخلاف النحوي وفروعه، وقد يلتقي البصريون والكوفيون على رأي واحد، وقد يختلف فريق منهم في نفس الرأي، وقد يحصل اتفاق بين علماء طائفة معينة بين بصريين وكوفيين حول مسألة نحوية معينة، وازداد الخلاف بين مدرستي البصرة والكوفة، وظهرت معالمه المذهبية حين التقى نحويي المذهبين في بغداد خلال القرن الثالث وهما المبرد وثلعب، اللذين كانا خير مثيلين<sup>4</sup>، ولقد اتسعت المفاهيم النحوية من خلال التنوع الذي سلكه النحاة في مسالك الحجية والاستدلال، من خلال القياس، والتعليل وهما المسلكان المهمان في التأصيل النحوي، ونقل السيوطي أن الكوفيين لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً، وبوبوا عليه بخلاف البصريين<sup>5</sup>، وكأن الكوفيين بحسب هذا القول ينون قواعدهم على شاهد واحد غير مكثرين بكثرة الشواهد التي تنقض القاعدة، إن وجهات نظر الكوفيين وآراءهم متمثلة في آراء الكسائي والفراء وثلعب، تختلف عن وجهات نظر البصريين في بعض التفاصيل والفروع، هذه حقيقة لا ينكرها إلا معاند، لكنها آراء ووجهات نظر قد تُوسّع فيها وُعِدّت ليصل الأمر إلى جعلها أساس المذهبين الكوفي والبصري، ويبدو أن تأليف بعض القدماء في هذا الخلاف بين الكوفيين والبصريين كان الباعث الأول للوصول إلى هذا الحد<sup>6</sup>.

ولقد اعتمد الأنصاري في نقده النحوي كثيراً من الآراء المختلفة والمواقف المتباينة سواءً تعلقت بالنحاة المتقدمين أم النحاة المتأخرين، وذلك باعتبار المنهج اللغوي الدقيق والنظر النحوي السليم ولا يتحقق ذلك إلا بالجمع وليس بالتفريق، ومن منطلق الدفاع عن القرآن وعن قراءاته المختلفة بنى الأنصاري أقواله ووجه انتقاداته اللاذعة إلى منهج النحاة بأوصاف متباينة يجعل الوقوف عليها أمراً محيراً، فاعتمد منهجاً جديداً دعا به إلى تصحيح النحو القديم الذي اعتبره خارج عن مضمونه الذي من أجله وضع ومقصده الذي لغاية وجد، فانحرف إلى مسار التعليل والقياس، ثم ابتعدت المدارس النحوية في تعييدها عن القرآن الكريم واتجهوا بالدرس النحوي إلى الجدل العقلي وغيره من المسارات المختلفة، ويؤكد أن القرآن الحجة البالغة وعلى أساسه يكون

تقعيد القواعد، كما ينبغي تصحيح ما وضع منها إذا ما تعارض مع شيء من القراءات المحكمة" ونجدها دعوة صريحة منه ترددت كثيراً في مؤلفاته المختلفة .

وصف مكّي الأنصاري النحاة بأنهم طغاة وطعنوا في القراءات ولم يتعاملوا مع النص القرآني في جعله المصدر الأول من الاستدلال لذلك تساءل مستغرباً، ماذا أقول لهؤلاء النحاة الطغاة، إنني لا أجد شيء أكرم من قولي سأحهم الله<sup>7</sup>، فنجد وصف النحاة بأنهم طغاة تكرر ذلك كثيراً في آرائه وعلى سبيل الإجمال، بدون شرط أو قيد، وكأن النحاة تعمدوا الطعن وساروا عليه وأيدوه والتزموا به، فهذا الكلام لا يحق بمقام النحاة الأجلاء الذين قعدوا القواعد ووضعوا الأصول وحفظ الله بهم لغة القرآن الكريم واتسعت بجهودهم المدارس النحوية واتسع الفكر النحوي، إن نظرة الأنصاري تحمل في طياتها تحاملاً على جماهير النحاة، والأقوال التي نسوقها أفضل شاهد على ذلك ، لأنه جعل النحاة على اختلاف مدارسهم النحوية فريقاً واحداً إذا يقول: ألا ترى معي أن النحويين بوجه عام، ولا سيما البصريين قد جاوزوا الحد المعقول، وأسرفوا على أنفسهم في اللغة والدين، فأئى منهج لغوي سليم يهدر قدراً كبيراً من شواهدنا الموثوق بها دون أن يدخلها تحت القاعدة العامة<sup>8</sup>، إن الطعن الذي اعتمده الأنصاري في نقده لمنهج النحاة بشكل عام ونحاة البصرة على سبيل الخصوص لا يستقيم في مقام النقد النحوي لأن البصريين دافعوا عن القرآن وفق أصول منهجهم، والكوفيون كذلك، ولكل مدرسة منهجها، إلا أن الأنصاري اتهمهم بالطعن وعدم الاعتماد على المنهج السليم، إذ يقول "ولعل سبب الإنكار يرجع إلى التسرع في وضع القاعدة قبل أن يتعمقوا في البحث والاستقصاء، فإذا خالفتم الشواهد، أخذوا في الإنكار والتضعيف والمهجوم العنيف، وهذا ليس من المنهج العلمي في شيء، فاللغة العربية أوسع من أن يحيط بها عالم بصري أو كوفي<sup>9</sup> .

إن القضية ليست من باب التسرع الذي وصف به الأنصاري النحاة وإنما هو اتساع لغات العرب واختلافهم في المفردات والمعاني من حيث بنية تلك المفردات التي وقع فيها الخلاف النحوي، لأن اختلاف اللغات هو الذي جعل الكم الكثير في بناء القواعد النحوية واستقراء الموروث الذي جعل سبباً للاستنباط فاختلفت نظرة النحاة، فاللغات تختلف قوة وضعفاً والضعف والقوة ليس في القراءة وإنما في اللغة التي وردت بها القراءة، وهو رأي خديجة الحديشي "إن توجيه الضعف إلى القراءة مباشرة إنما يحمل القراءة على إحدى لغات العرب الموصوفة بالضعف

والقلة ومع ذلك فهي لغة تصح القراءة بها، فالضعف والقلة عنده ليس في القراءة نفسها وإنما في اللغة التي قرأ بها القارئ<sup>10</sup>، ولكن الأنصاري يُجمل البصريين المسؤولية ويوجه لهم الاتهام المباشرة، ويحملهم تبعات القواعد التي تختلف مع بعض أوجه القراءات القرآنية فيقول: "ولكن البصريين على وجه العموم يلتزمون بالقاعدة الصماء التي يضعونها بأيديهم ولا يباليون بعد ذلك بما يرد من الشواهد<sup>11</sup>، إذا نظرنا إلى هذا الخلاف وجدناه في أوجه لغوية مختلفة بين لغات العرب ولعل البعض منها جاء في قراءات معينة من القرآن الكريم وكذلك ورده في أشعار العرب، والخلاف يقع في أيهما اقرب للفصاحة والشمول، إلا أنه يوجه النقد المباشر لمنهج نحاة البصرة على العموم، مؤكداً أنه لو كان إدخال الشواهد يهدم القاعدة هدماً تاماً لالتمسنا لهم المعاذير وقلنا أن اللغة تحتاج إلى شيء من التقعيد... ولكن العصبية تعمي وتصم، فلا يسمع المتعصبون نداء العقل والدين والمنهج السليم<sup>12</sup>."

ولكن هذا الالتزام بالقاعدة العامة التي لا تدخل تحت الضرورات أو الاستثناءات لأنها مستمدة من اللسان العربي قبل مسيرة الوضع والتأليف يقول الخليل بن أحمد "إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنهم<sup>13</sup>، لكن الأنصاري دائماً يوجه السهام إلى النحاة ويحملهم كل النتائج التي وقعت وكانت سبباً لذلك الخلاف مهما كان نوعه، وإذا رجعنا إلى طبيعة المنهج والدراسة النحوية نجد أن الكوفيين ترخصوا في أمور كثيرة تشذ عن القياس واعتدوا بالشواذ إذا وصلت عن طريق الثقة، إضافة إلى ذلك الجانب السياسي كانت الكوفة مستقر المحدثين ومهبط الصحابة والتابعين، فكانت تعدد بالإخبار الجزئية في استخراج الأحكام النحوية وترخصوا في أمور كثيرة، أما البصرة فكانت المعتزلة يتزعمون الحركة الفكرية فأهملوا الشواذ في اللغة ولم يعتدوا بأخبار الأحاد فجعلوها مما يحفظ ولا يقاس عليه<sup>14</sup>، والأنصاري يجعل النحاة فريقاً واحداً وأن الخلاف كله بسبب التعصب ضد القراءات إذ يقول "واختلفت آراء النحاة اختلافاً كبيراً، وتملكهم العصبية المذهبية فتعصبوا للقواعد النحوية، ضد القراءات القرآنية، فوصفوها بأبشع الصفات، ورموها بالقبح، والخطأ، والضعف، واللحن، والرداءة، والشذوذ، وأحياناً يحكمون عليها بالبطلان، وعدم الفصاحة، لنرى بأعيننا مدى تعسف البصريين وتمسكهم بالقاعدة الناقصة التي وضعوها بأيديهم في مصنع التقعيد<sup>15</sup>، ولا ننسى أن مصنع التقعيد هذا الذي جعله النحاة معياراً في وضع القواعد، وفي

حقيقة الأمر نجد اختلافاً في هذه القضية فمصنع التعميد هو أصله كلام العرب الذي نطقت به على سليقتها وطباعها فاللغوي أو النحوي هدفه إقامة الدليل من موروث اللغة وأصولها لذلك يقول ابن فارس "واعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي وقيس عليه"<sup>16</sup>، ثم يتساءل الأنصاري ويجعل تعليقات معينة لمنهج البصريين فيقول "والجواب أن البصريين لا يعدمون الحيلة فهم يلجئون إلى التأويل مهما كان مخالفاً لطبيعة اللغة وذوقها العام وحسها اللغوي السليم، ويؤكد تأكيدهم جازماً على اعتبار منهجهم وتمسكهم به "والتأويل هو المركب الذلول الذي يمتطيه البصريون كلما أعزتهم الحيلة وحاصرهم الدليل تلو الدليل"<sup>17</sup>، فهي أوصاف عامة ساقها الأنصاري على عمومها دون استثناء وإن المنهج المتبع في وضع القواعد واستنباط الأصول والتي اعتمدت في أساسها على اللغة القرشية المشتركة، ولا يمكن للإفرادات القليلة أن تبني عليها الأصول النحوية العامة، وإذا كان النحاة البصريون قد ذهبوا إلى تخطئة قراءات مشهورة فإنهم من غير شك لا يأخذون بالشواذ على اتصال سندها وجريها على العربية، إذا كان هذا موقفهم من القراءات فليس عجباً أن يكون لهم موقف مماثل من لغات القابل البعيدة عن مواطن البداوة<sup>18</sup>، ويوجه طعنه المباشر للمذهب البصري بتساؤل وإجابة غير دقيقة ولا مفصلة للوقائع والأحداث التي اعترها النحو العربي يقول "فماذا تنتظر من البصريين غير التفلسف... فإن المغالاة في التفلسف النحوي أفسد النحو بوجه عام حين أخضعوه لمنطق العقل، ونسوا أن اللغة لها منطقها الخاص الذي قد يتفق مع منطق العقل، وقد يختلف معه في بعض الأحيان"<sup>19</sup>.

إن تحرير القول في هذه القضية يحتاج إلى تفصيل واسع، ولعل الأقرب منها إلى الصواب أن التعليقات العقلية والمنطقية والفلسفية كانت في مرحلة متأخرة جداً عن القرون الأولى لأن تعليقات البصريين للظواهر النحوية كانت بعيدة عن التعليقات الكلامية والمنطقية لأنها وجدت قبل نشر الترجمات وكتب علم الكلام<sup>20</sup>.

#### مطاعن أحمد مكي الأنصاري في منهج النحاة المتقدمين:

إن العصبية بالوصف العام لا يمكن أن يوصف بها جماهير النحاة لأنها نظرة مغايرة للصواب ولا تمت بصلة إلى العدل المنطقي الذي ينبغي أن يسلكه كل باحث، وإذا سلمنا جدلاً بوجوده فإنه لا يمكن الوصف بها إلا في حالات نادرة تتجلى في تعارض الأدلة بين أصول المدارس

النحوية واختلاف اللهجات واللغات، ثم إذا نظرنا إلى كل من منهج البصريين ومنهج الكوفيين نجد أن المسيرة الأولى كانت مشتركة ثم حصل الانفصال بين المدرستين النحويتين وكل مدرسة اعتمدت منهجها النحوي الخاص بما في الاستدلال العقلي والنحوي، لأن الاختلاف حصل في تقديم الأصول بعضها على بعض، فأى دليل أقوى من دليل، وأي لغة أقرب إلى الصواب من لغة، وكذلك اللهجات المختلفة في قربها إلى اللغة المشتركة في الفصاحة من حيث القوة والضعف، وهو أمر معلوم بالضرورة في اختلاف المدارس النحوية، إلا أن نظرة الأنصاري كانت مختلفة تماماً في كل هذه القضايا، فيصف النحاة بأوصاف بعيدة كل البعد عن التحليل المنطقي الذي ينبغي أن يسلكه الباحث في حق المتقدمين من أعلام اللغة الواضعين لها، و ينتقد الأنصاري البصريين فيقول "ولكنها العصبية المذهبية تطغى على كل شيء عند البصريين... فانظر إلى أي حد يبلغ التعصب للمذهب كأنه منزل من السماء... ولكنها العصبية المذهبية تعمي وتصم فلا يسمع المتعصبون نداء العقل والعلم والمنهج السليم... ولكنها العصبية والتحيز"<sup>21</sup>.

فنجده يصف المذهب البصري على العموم بالتعصب وأنها النظرة العامة والمسلك المنتهج الذي جعله البصريون طريقاً لهم في الدراسات النحوية وفي التعامل مع التخریجات القرآنية التي لا تتوافق مع أصول قواعدهم ومنهجهم في الاستدلال اللغوي، وفي المقابل نجد تعاطف مع الكوفيين بعض الشيء فيقول "بل هناك أقطاب من النحاة وغيرهم تجردوا من العصبية المذهبية، ونظروا إلى القضايا النحوية نظرة موضوعية، فكان التوفيق حليفهم من الدفاع عن القرآن الكريم... إلى أن بعض النحاة الحادين على اللغة، الغيورين على القرآن الكريم تصدوا لهؤلاء الطاعنين، وألقموهم حجراً بل أحجاراً، لكثرة ما جاءوا به من أدلة وحجج"<sup>22</sup>، وهو يشير في هذه الأقوال إلى ابن مالك، وكذلك وابن هشام الأنصاري اللذان توسعا في الاستدلال بالقراءات القرآنية سواء المتواتر أو الشاذ في مصنفاهم المعروفة، ولكنه ليس في كل المسائل بل في القليل منها لأن الأنصاري نظرتة إلى النحاة متباينة ومختلفة كل الاختلاف فتجده أحياناً يتهم على كل النحاة عموماً وأحياناً يخص بالطعن نحاة البصرة، وأحياناً يجعلهم فريقاً واحداً في الطعن والرد والانتقاد وهي النظرة العاملة والشاملة في جل آرائه التي وجهها لهم في التخریج النحوي والاستدلال اللغوي.

إن المنهج النحوي قائم على قواعد وأصول في بناء الدليل النحوي وهو المعتمد في مسار المدارس النحوية، بينما يوجه الأنصاري الانتقاد الشديد لهذا الاستدلال سواء كان كوفياً أم بصرياً "فالجيل الأول من النحاة البصريين كان موقفهم من القراءات موقف من يعد القراءة سنة متبعة، ولكن هناك طائفة من نحاة البصرة المتأخرين تجاوزوا موقف أساتذتهم الأولين، وتعرضوا لبعض القراءات التخبطية تارة وبالرفض والإنكار تارة أخرى، فوقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية الأخرى، فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه، و ما أباهم رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ أو القبح حتى ولو كانت هذه القراءات من القراءات السبعية"<sup>23</sup>، ولكن الأنصاري ينتقد هذا المنهج ويدعو صراحة إلى تعديل قواعد النحو العربي التي تتعارض مع بعض أوجه القراءات فيقول "وينبغي على واضع القواعد أن يعدل القاعدة أو ينسفها نفساً إذا اصطدمت بالوارد الثابت الصحيح طالما توافرت له الكثرة التي تسمح بنسف القاعدة وبنائها من جديد... لكن النحاة الطغاة نسوا كل ذلك أو تناسوه"<sup>24</sup>، وسنتطرق إلى بعض الأمثلة التطبيقية التي ساقها الأنصاري وبين حقيقتها في ميزان الدرس النحوي.

المثال الأول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾<sup>25</sup> هذه القراءة تسمى في كتب الخلاف النحوي باسم عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور دون إعادة الخافض فشاع هذا الاصطلاح في جل الكتب التي تناولت الخلاف النحوي أو أشارت إليه وهي من المسائل المهمة في الخلاف بين البصريين والكوفيين، وإذا نظرنا إلى تخريج القراءة ونسبتها إلى أصحابها نجدها منفردة عن القراءة العشرة وتفرد بها حمزة بن حبيب الزيات<sup>26</sup>، والعطف على الضمير المجرور غير جائز عند جماهير البصريين منهم سيويه والأخفش والمبرد والزجاج والنحاس، وذهب كثير من العلماء أن المنع هو مذهب البصريين جميعاً ولا يستثنى منهم أحد<sup>27</sup>، أما الكوفيون ذهبوا إلى جواز العطف على الضمير المجرور<sup>28</sup>.

وإذا جئنا إلى موقف أحمد الأنصاري نجد أنه أقام علي البصريين حملة عشواء وصفهم فيها بكل الأوصاف فيقول "لقد جاوزوا كل حد معقول حين طعنوا في بعض القراءات وخطئوها ولحنوا قارئها وحرّموا القراءة بما تحريماً قاطعاً... وهذا المنطق الذي كتبت ما كتبت دفاعاً عن كتاب الله وإنصافاً للحق والحقيقة من بعض النحاة الطغاة سألهم الله<sup>29</sup>، ويوجه نداءه فيقول "وكان على النحاة أن يتقبلوها كما وردت ولا يعترضوا عليها بالتخطيء والتجريح"<sup>30</sup>، فمن ضعفها الزجاج

بقوله: "وأما الجر في الأرحام فخطأ في العربية ولا يجوز إلا في اضطرار الشعر وخطأ أيضاً في أمر الدين عظيم<sup>31</sup>، يوجد الأنصاري انتقاده إلى البصريين بقوله "ولعلك تلاحظ أن البصريين هم الذين يعارضون القراءة، وليس الكوفيين... على عادة النحويين البصريين احترام الشعر أكثر من الروايات القرآنية مع الأسف الشديد<sup>32</sup>، فنجد الأنصاري كعادته دائماً يتحامل على جمهور البصريين وينسب إليهم الطعن العام في القراءات القرآنية ورفضها والعجيب أننا نجد التناقض في آرائه، نجد مرة يصفهم على سبيل الإجمال، وأحياناً يتراجع عن القول ونجد في هذه القراءة جعل البصريين فريق، فلا يمكن أن نصف البصريين أنهم جاوزوا المعهود، وأسرفوا على أنفسهم في اللغة والدين كما يصفهم الأنصاري بل لا بد أن نسلم بكل الآراء وتقام في ميزان النقد النحوي وفق الأسس الثابتة لذلك فتوجيه الطعن للمبرد أو غيره، أو غيره من البصريين يقول الأنصاري "ولم يكن المبرد هو البصري الوحيد الذي اقتفى آثار سيبويه في الطعن على هذه القراءة بل هناك جمعٌ غفيرٌ من البصريين الذين ألفوا هذا المورد الآسن... أما الكوفيون فكانوا على منهج لغوي سليم غاية السلامة<sup>33</sup>، وفي المقابل يجعل الكوفيين على منهج سليم في غاية السلامة، ولقد اتجه الدرس النحوي إلى قبول هذه القراءة وجعلها في الاعتراف النحوي والسلامة الصحيحة ابتداءً من ابن يعيش وابن مالك وأبي حيان والسمين الحلبي وابن هشام والسيوطي وذهب ابن الحاجب إلى وجوب إعادة الخافض وتبعه في ذلك ابن عصفور الاشبيلي، وخلاصة القول أن التعميم في المسائل الجزئية التي هي مناط النظر والاجتهاد لا يعدوا أن يكون مجازفة علمية"<sup>34</sup>، والأنصاري دائماً يشيد بقول ابن مالك وآرائه تجاه قبول القراءات القرآنية والاستشهاد بالحديث النبوي الشريف الذي يرى الأنصاري أنه صاحب الدفاع عن القراءات والانتصار لها فيقول عنه "وإذا أردت القول الحصيف والعقل المتزن والمنطق السديد فعليك ابن مالك في هذه القضية بالذات<sup>35</sup> . إن بن مالك كانت له آراء ومواقف في التصحيح والاستدراك على النحاة المتقدمين وتوسيع دائرة الاستدلال، فصحح المسار في الكثير من الآراء النحوية وقعدها وهذبها وجعل لها أصولاً تستند إليها وتستمد قوتها من تلك القواعد.

فهذا خلاف نحوي كل نحوي اجتهد بما جادت به قريحته، ولا يمكن أن نجعل من الخلاف القليل في بعض الأوجه النحوية أحكاماً عامةً، فالخلاف وارد باختلاف القبائل واختلاف اللهجات واختلاف المذاهب والمدارس النحوية، لذلك نجد الفراء الكوفي يرفض بعض القراءات ولا يتبعها

ونرى المبرد ينكر على ابن عامر قراءة "الأرحام" بكسر الميم والزجاج يخطئها والزخشي يضعفها ونجد ابن جني يرد على المبرد إنكاره لها بقوله "وليس هذه القراءة عندنا"<sup>36</sup>، ومن جهة أخرى موقف نحاة الكوفة، أنهم يتخذون من القراءات سنداً لأقيستهم، فكل قراءة ردها البصريون كانت سنداً لقياس أعلنه الكوفيون<sup>37</sup>، ومعلوم أن بعض القراءات جاءت بأوجه مختلفة، فُبل الكثير منها وتوقف النحاة في القليل من تلك الأوجه، وأحسن مثال على ذلك قراءة الأرحام بالخفض جاءت في القرآن وجاءت في الشعر العربي، ولكنها مخالفة للأصول المعهودة عند عامة النحاة، لذلك توقف النحاة فيها، وحاولوا تخريبها على لغات العرب الذين وردت على لسانهم، فإذا كانت تلك اللهجات ضعيفة لغةً أو قليلة استعمالاً، لا يشمل ذلك بطبيعة الحال الطعن في القراءات القرآنية بل هي أحكام عامة تسري على عموم الأحكام النحوية.

المثال الثاني: قوله تعالى "إن هذان لساحران" إن هذه الآية تحمل الكثير من الخلاف النحوي في توجيهها منذ المسيرة الأولى للدرس النحوي إلا أن مكّي الأنصاري وجه انتقاداته إلى النحاة على سبيل العموم والإجمال فنجده يقول "إن النحاة أمر عجيب، يخطئون القراءات حسب أهوائهم ونزعاتهم ومقاييسهم المختلفة، ومن أعجب ما رأيت في هذا الميدان مهاجمتهم للقراءة أن هذان لساحران، حيث قالوا إنها مخالفة للقاعدة النحوية"<sup>38</sup>، ولم تسلم واحدة منها من هجوم النحاة الطغاة<sup>39</sup>، فالأنصاري دائماً يوجه الانتقادات إلى النحاة ويحملهم أوزار ذلك الخلاف الذي حدث، ويصفهم كالعادة بأنهم طغاة وأنهم كانوا سبباً في رفض القراءات والطعن فيها والحكم عليها بالضعف أو عدم القبول ولكن وسوف نبين الخلاف في هذه القراءة، كالأتي قرأ أبو جعفر والحسن وشيبة والأعمش وطلحة وحميد وأيوب وخلف في اختياره وأبو عبيد وأبو حاتم وابن عيسى الأصفهاني وابن جرير وابن جبير الأنطاكي والأخوان والصاحبان من السبعة (إن) بتشديد، والنون هذان بألف ونون خفيفة لساحران "إن هذان لساحران"<sup>40</sup>، قال ابن زنجلة وهذا الحرف في كتاب الله مُشكّل على أهل اللغة وقد كثر اختلافهم في تفسيره فحكا أبو عبيدة أنها لغة كنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، فيقولون (أتاني الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان)<sup>41</sup>، وقال المبرد: أحسن ما قيل في هذا أن يجعل "إن" بمعنى (نعم)<sup>42</sup>.

وقرأت عائشة والحسن والنخعي والجحدري والأعمش وابن جبير وابن عبيد وأبو عمرو إن هذين بتشديد نون إن وبالياء في هذين بدل الألف "إن هذين لساحران"<sup>43</sup>، قال أبو زرعة قراءة

أبو عمر "إنَّ هذينَّ" بالياء، لأن التثنية المنصوب والمجرور بالياء في لغة فصحاء العرب وأبو عمرو مستغن عن إقامة دليل على صحتها<sup>44</sup>، وقال الزجاج لا أجزى قراءة أبي عمرو لأنها خلاف المصحف، وقالت جماعة منهم عائشة وأبو عمرو هذا مما لحن الكاتب فيه وأقيم بالصواب<sup>45</sup>، قد اختلفوا في قراءة هذا الحرف فقرأه أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر "إنَّ هذين لساحران" وذهبوا إلى أنه غلط من الكاتب كما قالت عائشة<sup>46</sup>، وإن المنبع الذي أستمد منه العلماء القواعد هو كلام العرب، شعره ونثره فوجدوا منه المطرد والغالب والكثير والقليل والنادر والشاذ والضعيف والضرورة فسجلوه ودونوا منه القواعد<sup>47</sup>.

نجد مكّي الأنصاري يطعن في هذه التخریجات التي ارتضاها النحاة، ويجعلها في غير ميزانها العادل وفي غير موضعها المنصف فيقول "ونسبوا إلى بعض الصحابة أقوالا مدسوسة ومزورة هم منها براء براءة الذئب من دم يوسف"<sup>48</sup>، وهنا يشير الأنصاري إلى قول جماعة ومنهم عائشة وأبو عمرو أن هذا مما لحن الكاتب فيه وأقيم بالصواب<sup>49</sup>، لذلك نجد مكّي الأنصاري يصف ابن هشام الأنصاري بأنه دائما مصدر إشعاع وإمتاع وأنه كان عقلاً ناضجاً معطاءً، وأنه كان قمة من القمم الشوامخ في النحو العربي، ويصف أن النحاة يتأولون بالتأويل المتعسف وأن النحاة قد أخطئوا فهم هذا الباب، وتدوينه، ثم تجرّعوا على تغليب العرب في بعض أحكامهم ويقول "وقديما ضاق القدماء بهذا المسلك المقيت من النحاة الطغاة"<sup>50</sup>، إن هذه الأوصاف التي تبنها الأنصاري وجعلها سمة للنحاة السابقين لا ينبغي أن تكون في ميزان النقد النحوي لأنهم أبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن الكتاب وعن تأصيل اللغة وبناء أصولها وفروها، وإن حركة التأليف النحوي وبعد استقرار العلوم توجهت للقرآن الكريم بالتوجيه والإعراب والبيان، فإنه لا يخلوا كتاب نحو من شواهد القرآن ولا يخلوا كتب تفسير من بينان أوجه الإعراب واللغة لأنها مفتاح الشريعة وأساس فهم القرآن.

المثال الثالث: قراءة الفصل بين المتضامين في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾<sup>51</sup>، إن قراءة ابن عامر في وجه من الوجوه كان محل إشكال وأخذ ورد بين النحاة وبين القراءة وكان لمكّي الأنصاري حظه من هذا الخلاف والتوجيه وإبداء الرأي حول هذا التوجيه النحوي الذي يسمى في عُرف الخلاف النحوي بالفصل بين المتضامين، فاختلفوا في قوله "وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ"، فَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحْدَهُ "وَكَذَلِكَ زَيْنٌ"

يرُفَع الزاي، الباقون ينصب الزاي<sup>52</sup>، قرأ ابن عامر وحده ورفع اللام من (قَتَل)، ونصب الدال (أولادهم)، (شركائهم) خفضاً بالياء، وقرأ الباقون، بفتح الزاي، واللام من (قتل)، ورفع الشركاء، وكسر الدال قال أبو منصور وهذا عند الفصحاء رديٌّ جدًّا، ولا يجوز عندي<sup>53</sup>، وقد قال أبو حيان عن هذه القراءة "جمهور البصريين بمنعوتها"<sup>54</sup>، ونجد الأنصاري يصف النحاة بأنهم طغاة جراء هذا الموقف الذي اتخذته النحاة في التعامل مع الوجه الذي قرأ به ابن عامر وهي قراءة قرآنية يقول "فجعلت القرآن حجة بالغة في القواعد النحوية بدلا من إخضاع القراءات للقواعد، ورفضها إن خالفت شيئا مما صنعوه بأيديهم من القواعد الناقصة القاصرة كما هي الحال في قراءة ابن عامر<sup>55</sup>، والفراء كان يضعف قراءة ابن عامر بالفصل بين المضاف وهو قتل، والمضاف إليه وهو شركائهم بالمفعول به<sup>56</sup>، ويوجه السيرافي قراءة ابن عامر وهذا خطأ عند النحويين<sup>57</sup>.

فالأنصاري يتهم سيبويه أنه وضع القاعدة التي تصطدم بها ثم جاء من بعده فصرح بما لم يصرح به سيبويه<sup>58</sup>، ثم يوجه تساؤله فيقول "ولعلك تلاحظ أن سيبويه وصف الفصل بين المتضامين بالقبح<sup>59</sup>، فسيبويه يعتبر القرآن الكريم مصدراً أكثر أهمية لاستنباط القواعد واستشهاداً عليها فكانت آياته الكريمة معرضاً لكثير من الآراء النحوية والتوجيهات الإعرابية فحفل كتابه بالشواهد القرآنية الكثيرة، حيث بلغت شواهده القرآنية ما يقرب من أربع وسبعين و ثلاثمائة آية<sup>60</sup>، فموقفه من القراءات موقف معتدل وقد استشهد بها واستخلص منها القواعد وقاس عليها كلام العرب أو قاسها على كلام ونظر إليها نظرته إلى الآيات الواردة في المصحف العثماني<sup>61</sup>، وهذه هذه الحقيقة والموقف الذي ينبغي أن يعلم في ميزان النقد النحوي.

لقد اختلفت النحاة في الأخذ بقراءات القرآن الكريم فكان البصريون لا يعتبرونها حجة ولا يعتمدون عليها في استنباط قواعدهم، إما بتخطئة القراءة حتى ولو كانت متواترة وقارئها من السبعة إذا كانت غير موافقة لأقيستهم وقواعدهم، وكان الكوفيون وابن مالك يحتجون بها ويعتدون حتى بالشاذ منها وقيسون عليه وبينون أحكامهم وقواعدهم<sup>62</sup>، وإن سيبويه سابق لجمع القراءات القرآنية وسابق لتسبيحها وتصنيفها، والسابق لا يخضع لحكم اللاحق<sup>63</sup>، بخلاف ما يراه الأنصاري في أن ظاهرة التعصب عند سيبويه تراها واضحة كل الوضوح في ثنايا الكتاب حينما يتعرض للقراءات المختلفة فكان يرجح قراءة القراء البصريين على قراءة القراء الكوفيين<sup>64</sup>، فإن هذا الرمي بالتعصب للبصريين يكون مجانباً للصواب وللحقائق العلمية المتعارف عليها، لأن في عصر

سيبويه لم تكن القراءات معلومة ولا محددة لأن تسييع السبعة والعشرة من القراءات كان متأخراً عن عصر سيبويه.

إن الأنصاري يقسم النحاة الذين تعرضوا لإنكار قراءة ابن عامر إلى قسمين منهم من ضعفها ومنهم من جهَّل قارئها، فلا تُلم الأول واعذر ولا تلم الثاني بتجهيله وتخطئة إياه مع ثبوت قراءته ورفع قدره وصحة ضبطه وتحقيقه<sup>65</sup>، وفي النهاية يتعجب الأنصاري من مواقف النحاة ويقول "كيف هان على النحاة أن يهاجموا هذه القراءة ويصفوها بالقبح والرداءة"<sup>66</sup>، وإذا نظرنا إلى هذا الخلاف نجد خلافاً متشعباً بين البصريين والكوفيين في الرفض وهو من الخلاف العام المتعلق بالصيغ والشواهد المعلومة عند العرب، وأن هذا الوجه من القراءة ليس معروفاً عند البصريين ولا مشهوراً عن ثقة يؤخذ بلغته، ونجد الفراء من الكوفيين طعن في هذا الوجه من القراءة، وذكر أبو علي الفارسي أنه قبيح قليل في الاستعمال، ونجد كذلك مكّي بن أبي طالب في القرن الخامس يضعف هذا الوجه ومضى على هذا الأمر الزمخشري والعكبري وابن يعيش<sup>67</sup>، وعليه فإنه لا يختلف الفريقان في أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه لا يجوز في سعة الكلام بل يختص بالشعر، ولم يتصد نحاة البصرة المتقدمون إلى القراءة بشيء إلا الزجاج من متأخريهم في حين نجد أن الفراء يرد هذه القراءة ومن تبعه من الكوفيين لأنهم خصوا الفصل بالظرف والجار والمجرور في الشعر<sup>68</sup>.

نجد أن الأنصاري في هذه المسألة يبحث لعله يجد في كتاب سيبويه رفضاً لهذه القراءة أو تخريجاً لها ولكنه يؤكد أنه لم يجد ومع ذلك رماه بالتهمة وحمله بما لم يقل ويؤكد هذا باعتزافه "وبالتالي لم أعثر على طعن صريح لسيبويه في قراءة ابن عامر بالفصل بين المتضامين... غير أننا إذا أردنا أن نضع الأمور في نصابها نقول أن سيبويه هو الذي وضع القاعدة التي تصطدم بهذه القراءة السبعية"<sup>69</sup>، ولكن نتساءل ما هو موقف الأنصاري من سيبويه في قراءة ابن عامر، نجد أن الأنصاري يُقر أنه لم يعثر على طعن لسيبويه، ثم يتراجع ويتهم سيبويه بالطعن في القراءات فيقول "وهذا يدل على أن سيبويه ضالع في هواه مع القواعد النحوية ضد القراءات القرآنية... فأيقنت وأرجحت أن سيبويه بالذات لم يتعرض للطعن الصريح على قراءة ابن عامر... ومعنى أن سيبويه وضع القاعدة النحوية التي تصطدم بهذه القراءة السبعية صحيح أنه لم يصرح بالقراءة نفسها ولكنه عارضها معارضة خفيفة بوضع القاعدة النحوية المعارضة لها"<sup>70</sup>

ويقول "وأشهد سيبويه كان قمة في الذكاء وبخاصة حينما يريد إخفاء ما في نفسه حيال القراءات التي يعارضها ولكنه لا يريد أن يتصدى لها بالإنكار الصريح لسبب أو لآخر، فكان يلف ويدور وأخيراً يضع القاعدة النحوية التي تصدم بهذه القراءة وتردها رداً قاطعاً دون أن يذكر القراءة نفسها".<sup>71</sup>

يشير مكّي الأنصاري في موضع آخر إلى أن الفراء هو الذي تطرق لهذا الأمر والتعرض للقراءات الشاذة "وأن الفراء إمام مدرسة الكوفة بعد الكسائي هو أول من تعرض للقراءات الشاذة بالإنكار"<sup>72</sup>، ولكن لا يخفى علينا ألا ننسى قول الإمام الفراء المتهم في الطعن في القراءات، فحده هو المدافع عنها بكل شدة، وقوله الخالد وهو أشهر من نار على علم مُؤكداً أن الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر<sup>73</sup>، وفي المقابل مكّي الأنصاري يتهجم على الفراء فيقول "ولكن الفراء تتجاذبه الأهواء فينزغ أحياناً منازع البصرة في تخطئ بعض القراءات تاركاً مسلك قومه الكوفيين من إتباع الوارد واحترام الشواهد وخاصة ما كان من القرآن، وأحياناً يتهجم على العرب يخطئهم في لغتهم، بل أكثر من هذا تهجم على القرآن الكريم في بعض قراءاته السبعية تماماً كما كان يفعل البصريون من قبله ومن بعده"<sup>74</sup>، ثم يقول بعدها كلاماً أشد وطأة من سابقه "فانظر إلى الفراء تتابه النزعة البصرية فيخرج عن طبيعته السمحة عن منهج الكوفيين السليم إزاء القراءات القرآنية... في منهجه الذي تأثر بمنهج البصريين إلى حد بعيد".<sup>75</sup>

إن من الإجحاف أن نطعن في من لهم فضلٌ عظيمٌ في خدمة العربية وإقامة بنائها، ولا ننسى مكانة الفراء وهو يحيى بن زياد من نخاة الكوفة وشيوخها في العربية، بل يعد الكسائي وتلميذه الفراء النحويان اللذان رسما صورة النحو الكوفي ووضع أسسه وأصوله وأستقل بها عن النحو البصري<sup>76</sup>، وإن مما جعل الخلاف النحوي كثيراً ومتشعباً هو أن النحاة لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من الكلام العربي الذي استطاعوا الوصول إليه إلا سجلوه، وأثبتوا له حكماً، سواء في الكليات أم في الجزئيات أم المطرد أم المنحرف، وبذلك جاء علم النحو في صورة دقيقة شاملة وملمة بجميع دقائق اللغة<sup>77</sup>، إن القضية ليست قضية الفراء أو مدارس نحوية بصرية وكوفية، إن القضية كُلهما في اختلاف بعض الأوجه وبعض الظواهر القرآنية المخالفة لما هو شائع في اللغة القرشية، وجاء في القراءات على لغات أخرى حُكم على أهل تلك القبائل بعدم الفصاحة أو مخالفة مشهور اللغة وفصيح القول وبيان الخطاب، ولم تستقم تلك الأصول والقواعد إلا بعدما

استقام فن القراءات وصارت له أصوله وقواعده التي تتحكم في مصير أوجه القراءات بداية من ابن سلام وابن مجاهد وابن الجزري فكانت سلسلة ذهبية في إقامة فن القراءات وفق أصول وضوابط معلومة، وثبت في كتب القراءات بأنه لما كانت المائة الثالثة واتسع الخرق وقل الضبط... فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة<sup>78</sup>، فالعناية بالقراءات وتصنيفها وترتيبها من حيث القوة والضعف بدأ من عصر ابن مجاهد والطبري، لذلك كان سيبويه يحيل على القراءات بدرجة الحذر في الإسناد مخافة الغلط أو الطعن فيها، لذلك كان اختياره وترجيحه من باب الحس اللغوي الراجح في علم النحو، وعدم ترجيح قراءة على أخرى لا يستلزم الطعن فيها والأنصاري يؤكد هذه الفكرة ولا يختلف طرحة بين معتقده لأنه يقر بهذه الحقيقة.

وإذا جئنا إلى بعض التفصيل نجد أن مكّي الأنصاري انتقد الكثير من النحاة بطرق لا تليق في حقهم وغلّو منزلتهم وفضلهم على اللغة العربية والقرآن الكريم بداية من سيبويه وابن الأنباري والفراء وتهجمه على جماهير نخاة البصرة تارة، وانتقاده لمنهج الكوفيين تارة أخرى، مرة بالثناء ومرة بالطعن والاستدراك والاعتراض عليهم، وهذا الذي نلاحظه في مؤلفات مكّي الأنصاري بحجة الانتصار للقرآن ضد النحويين والمستشرقين أو الطعن في آراء سيبويه بمؤلف مستقل أو الفراء أو غيرهم، وجل مؤلفات مكّي الأنصاري فيما أعتقد وما توصلت إليه من البحث في آرائه وانتقاداته لمذاهب النحاة بين القديم والحديث، ونجده يقول عن ابن الأنباري "ونعود إلى ابن الأنباري في كتابه الآخر المسمى بالأنصاف وكان حقه أن يسمى بالإجحاف لما فيه من تعصب شديد للبصريين ضد الكوفيين... وفيه أن ابن الأنباري وهو البصري المتعصب يضعف الرأي الذي اختاره سيبويه والخليل... ويصفه بأنه البصري المتعصب ويضعف الرأي الذي اختاره سيبويه<sup>79</sup>، ولعلك تلاحظ أن ابن الأنباري جعل الكوفيين في المؤخرة... بل إن ابن الأنباري نصح سيبويه في تغليب العرب مع اعترافه بأن الوارد من الشواهد موثوق به تمام الثقة... وصفه لابن الأنباري وسيبويه فيقول أن المسلك السليم عندهم الرد والتخطئة للكلام العربي الصريح ما لم يتفق مع القاعدة النحوية البصرية فكأن النحو كل شيء ينبغي أن يكون في خدمته وطوع إرادته وإلا حكم عليه بالإعدام مع الأسف الشديد<sup>80</sup>، إن كل هذه الوجهة والانتقادات التي وجهها الأنصاري إلى جماهير النحاة لا يمكن أن نقبلها في ميزان النقد النحوي،

لذلك قيل أن الناطق باللغة إذا استعمل لهجة ضعيفة لم يكن مخطئاً لكلام العرب ولكنه يكون مخطئاً لاختيار أجود اللغتين<sup>81</sup>، كما أنه لا ينبغي الخلط بين حجية القرآن الكريم وحجية القراءات القرآنية، فحجية القرآن معلوم من الدين بالضرورة أما القراءات فإن حجيتها لغوياً مرهون بتحديد نوعها، والظاهرة الموجودة فيها وصلتها بغيرها من مظاهر اللغة، ومدى اطرادها أو قصورها أو تضافرها مع غيرها أو تنافرها، وأن حجية القرآن الكريم لا تستلزم حجية القراءات القرآنية<sup>82</sup>، إن الكلام الذي ساقه مكّي الأنصاري في حق سيويه أو في حق ابن الانباري نرى أنه لا يستقيم في ميزان النقد النحوي لأنه يحمل الطعن المباشر لجليل كان من خيرة الأجيال في حمل زمام اللغة وصيانتها وقيام قواعدها وأصولها، فهذا الذي لا يُرتضى بحالهم ولا يليق بمقامهم.

### دعوة مكّي الأنصاري إلى تعديل القواعد النحوية وإقامة النحو القرآني

لقد ألف الدكتور أحمد مكّي الأنصاري عدة مؤلفات ومصنفات وكانت آراءه تصب دائماً في نقد آراء سيويه وإن لم نقل في أغلبها، فنجد مكّي الأنصاري دائماً في أغلب مؤلفاته يوجه دعوات إلى تعديل القواعد النحوية، وإقامة قواعد تستمد قوتها ومادتها من الشواهد القرآنية وكما يسميها تصحيح الهرم المقلوب، وأن تجعل أساليب القراءات القرآنية هدفاً أساسياً في تععيد القواعد وإقامة الأصول وبناء الفروع ولكن إذا نظرنا إلى الدرس النحوي وإلى اختلاف القراءات القرآنية نجد أن هذه الدعاوى بعيدة كل البعد، وليس كل النحاة رفضوا القراءات وإنما وقع الخلاف في بعض الأوجه القليلة وهي في ذاتها لا يمكن أن تقام لها نظرية كما يدعو إليها الأنصاري وكان خليقاً بهم أن يتخذوا القرآن الكريم منبعهم الذي لا يغيض ومصدرهم الأول في كل تععيد ومن هنا كانت دعوتنا الحارة لاتخاذ الخطوات الجادة في إخراج النحو القرآني<sup>83</sup>، ثم يوجه الأنصاري أحكامه الاستباقية في شعار قديم كان وصفه "وقديماً قالوا الرجوع إلى الأصل فضيلة، ولكن البصريين لا يلتزمون بهذه الفضيلة، ولا يتكون غيرهم يلتزم بها أو يقترب منها، فالقاعدة عندهم مقدسة في أعلى مراتب التقديس، وتلك طريقة مألوفة عند بعض النحاة الذين يتعصبون للقواعد ويرفضون الوارد من الشواهد<sup>84</sup>.

فالأنصاري دائماً يدعو النحاة إلى تعديل القواعد النحوية وقبول القراءات كما فعل فريق من الكوفيين، ويحاول التماس المعاذير للنحاة، وأنه لا يتهمهم في خلق ولا في دين وفي المقابل يتهمهم بالعصبية المذهبية والتمسك بالقواعد حتى أسرفوا على أنفسهم في اللغة والدين

وتجاوزوا الحد اللائق بهم، بل لا بد عليهم أن يصححوا ما تعارض مع القراءات القرآنية، لذلك الأنصاري يصف البصريين أنهم يحترمون الشعر أكثر من القراءات القرآنية ولكن هذه النظرة لا تستقيم في ميزان النقد النحوي فكل النحاة جعلوا النص القرآني في أعلى المراتب في الحجية، وفي الأخير يحاول الأنصاري أن يلتمس المعاذير للنحاة بحكم المنهج الذي سار عليه الدرس النحوي منذ النشأة والتأسيس، وهو المنهج المعتدل ومقولة الصدق أنه ينبغي أن يعتذر للنحاة من الخطأ والزلل، إن سلمنا به سواء تعلق ذلك بوضع القواعد وتأسيسها أو تعلق بالشرح والبيان والإيضاح من الرعييل الذي جاء بعدهم وهذا هو عين الإنصاف فيقول "ولكن إذا أردنا الإنصاف قلنا أن أسلافنا القدماء قد أدو واجبههم قدر المستطاع ولم يدخروا جهداً في خدمة اللغة العربية، لغة القرآن وخليق بنا أن نلتمس لهم المعاذير وألا نحملهم جريرة العصر كله فتلك سمات البحث والتأليف في ذلك الحين، ومن الغبن الفاحش لهم ولجهدهم أن نقيس مسالك الفكر في الزمن الغابر بمقاييس المنهج الحديث في الزمن الحاضر<sup>85</sup>، لذلك لا يمكن أن تكون آراء الأنصاري في هذا المسار موفقة من جانب إعادة صياغة النحو العربي الذي استقر عليه علم اللغة منذ قرون وسارت به الركبان في كل زمان ومكان وأن نظرة الأنصاري في هذا الأمر تشمل مواضع تعد على الأصابع لا غير.

وتعتبر هذه الظاهرة قليلة جداً، ولا يمكن أن نطعن من خلالها في آراء النحاة ومذاهبهم، لأن المسلك في ذلك ليس هو الغالب في جُلّ القضايا النحوية، بل في مسائل قليلة جداً وهذا هو مذهب جل الباحثين المحققين<sup>86</sup>، فمن المستحيل وضع قاعدة نحوية تسع جميع الظواهر المتضاربة في القراءات القرآنية، ولا يمكن وضع قواعد تسع كل الظواهر اللغوية الأمر الذي يتطلب القول باعتماد بعض القراءات دون بعضها الآخر<sup>87</sup>، وإن من التوجيهات في سياق الخلاف بين النحاة والقراء، نجد أن بعض الباحثين يتجه إلى أن النحاة عدو النص القرآني محاييداً لا يدخل شاهداً في الطور الأول من تاريخ الشاهد النحوي ثم شرعوا يستشهدون به في الطور الثاني بعد استقرار الأحكام النحوية، وإلا كيف يقيموا قواعد نحوية معتمدة على النص القرآني لتفسير النص نفسه لذلك لجئوا إلى الاستشهاد بكلام العرب<sup>88</sup>.

إن مكّي الأنصاري استقى بعض هذه الأفكار من الدكتور عبد الخالق عضيمة كما صرح هو بذلك، إلا أن الأنصاري كان أشد قسوة من على مذاهب النحاة وآرائهم، فيقول محمد عبد الخالق "هذه الحملة الأثمة استفتح بابها وحمل لواءها نحاة البصرة المتقدمون، ثم تابعهم غيرهم

من اللغويين، والمفسرين، ومصنفي القراءات<sup>89</sup>، ولكن هذه النظرة الإجمالية صححها الدارسون وحققوا القول الصواب فيها ولا ينبغي أن تطلق على سبيل الإجمال بل لابد فيها من تحري الرأي الدقيق والمنصف، وإلا نظرة الإنصاف التي ساقها بعض الباحثين هي أن بصري القرن الثالث هم الذين طعنوا في القراءات وهي أمثلة قليلة لا يصح أن يتخذ منها ظاهرة لا خاصة ولا عامة، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ، ويؤولونها، ما وجدوا إلى التأويل سبيلا<sup>90</sup>، ويذهب الأنصاري في خلاصة بحثه أن سيبويه كان يتصدى للقراءات ويعارضها معارضة خفيفة دون أن يذكر نص الآية بصراحة، ولكنه يضع القاعدة التي تصطدم بهذه القراءة وتعارضها أشد معارضة تلك هي القضية الأساسية في هذا البحث<sup>91</sup>، ويرد شوقي ضيف على هذه الآراء وأنه ليس في كتاب سيبويه تخطئة واحدة لقراءة من القراءات مع كثرة ما استشهد به منها وقد صرح بقبولها جميعا مهما كانت شاذة على مقاييسه، إذ قال أن القراءة لا تخالف لأنها سنة<sup>92</sup>.

لكن هذه الآراء التي توصل إليها الأنصاري ترد من عدة وجوه ومن ذلك، ألا يتم الحكم بما لم يستشهد به في الكتاب لان القواعد المستمدة من استقرار كلام العرب وما ثبت عنهم قد يختلف مع وجوه القراءات لأن القراءات احتوت اللهجات العربية المختلفة وهذا الاختلاف له أثر في الإعراب وفي سياق الخطاب، لذلك سيبويه لم يطعن في القراء وإنما حكم على تلك الوجوه النحوية، والقراءات مختلفة في وجوه الإعراب وهو كان يختار الوجه الأصح والأفصح عند عامة العرب وربما كانت تلك اللغات لهجات قليلة لقبائل محددة ودليل ذلك أن الخليفة عثمان بن عفان اختار لسان قريش ولم يختار لسان قبيلة أخرى، لذلك كان القياس النحوي وإعمال القواعد والأصول النحوية والقياس والتعليل مما اشتهر عند أغلبية النحاة من أجل الوصول إلى الصنعة المكتملة وإحكام القواعد النحوية، لأن المنهج العام الذي سارت عليه المذاهب النحوية على خلاف بينهم من حيث الاستدلال النحوي مع كثرة الشواهد وسعة اللغة العربية سواء من اللغة المشتركة أم لغة قريش أم لغات القبائل الأخرى، وأن الإنكار والاعتراض على القراءات القرآنية لا يختص بالبصريين ولا يختص بالنحويين، فمن علماء الفقه والحديث وغيرهم ممن أنكر بعض القراءات، فقد أنكر أبو عمرو بن العلاء بعض القراءات السبعية وكذلك الكسائي وكذلك الطبري وهو من علماء القراءات وهو صاحب اختيار وغيره من المفسرين<sup>93</sup>، إن إنكار القراءات ليس حكرا على أحد بل هم ومرتبط بالقصور البشري وقد يخفى على بعض العلماء تواتر بعض

القراءات وإذا كان الذي سيع السبعة أبو بكر ابن مجاهد قد أنكر عدداً من القراءات في كتابه كقراءة "كن فيكون" بالنصب، ووصفها بأنها غلط، فإذا كان أهل القراءات أنفسهم خفي هذا عليهم ويفعلون ذلك فلماذا يخص النحويون باللوم والاتهام<sup>94</sup>، ويبدو أن السبب الذي جعل بعض النحاة البصريين يرفضوا بعض القراءات يعود إلى الاختلاف في المنهج بين النحاة والقراء، فإن منهج النحاة يقوم على القياس والاعتماد على أشهر اللغات وأكثرها شيوعاً واستعمالاً وأحفلها بالشواهد، ثم تعليل هذه الظاهر، في حين يقوم منهج القراء على الرواية دون الالتفات إلى شيوع اللغة أو ندرتها أو شدوذها<sup>95</sup>، ومع هذا تعتبر هذه الظاهرة قليلة جداً، ولا يمكن أن نطعن من خلالها في آراء النحاة ومذاهبهم، لأن المسلك في ذلك ليس هو الغالب في جل القضايا النحوية، بل في مسائل قليلة جداً وهذا هو مذهب جل الباحثين المحققين.

#### الخاتمة:

إن تعدد القراءات وتنوعها واختلافها يحمل تحفظاً في بعض وجوه القراءات عند الكثير من اللغويين والنحاة فظل الأمر على حاله حتى جاء ابن مجاهد فصنف في القراءات وبين أقسامها وحدد المتواتر والشاذ وكذلك واصل ابن الجزري المسيرة بعد ابن مجاهد فاتضح معالم القراءات القرآنية، ولا يمكن أبداً أن نتهم السابقين من اللغويين والنحويين والمفسرين بالطعن في القراءات لأنها لم تكن معلومة بالضبط والدقة، والتي جاءت بعد عصور متأخرة نسبياً عن الدرس النحوي، فتبقى اجتهادات النحويين واللغويين تمثل خلاصة الفكر النحوي، واجتهادات القراء هي تمحيص وبيان وتفصيل لأحكام الكتاب المبين بقراءاته المختلفة.

وإن الطعن في منهج النحاة وفي مسلكهم واتهامهم بالأباطيل لا يقبل في ميزان النقد النحوي لأن الله سخرهم لخدمة لغة التنزيل والعناية بالذكر الحكيم، وإن الكثير من هذه المطاعن تحمل دعاوى مغرضة الهدف منها الطعن في أصالة النحو العربي والطعن في لغة القرآن، والدعوة إلى العامية وترك لغة التنزيل والابتعاد عنها بدعاوى التيسير النحوي وغيره مما يصد طالب النحو عن معينه العذب ومصنفاته الواسعة التي هي تراث الأمة ومجدها الخالد الذي جعله الله أساساً لفهم كتابه العزيز.

## هوامش:

- 1 ترجمة أحمد مكّي الأنصاري: ولد بصعيد مصر سنة 1921م، خريج كل من الأزهر، ودار العلوم، ومعهد التربية، تحصل على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام 1960م، اشتغل مدرسا بكلية الآداب جامعة القاهرة ثم رئيساً لقسم اللغة العربية، درس في العديد من الجامعات العربية وأقام بمكة المكرمة واشتغل استاذاً للدراسات النحوية، توفى سنة 2003م، وترك العديد من المؤلفات والمقالات، انظر: نظرية النحو القرآني، بطاقة تعريفية بالمصنف.
- 2 الأنصاري، أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، دار المعارف، مصر، 1973م، ص105، ص179
- 3 محمد البنا، ابن كيسان النحوي، دار الاعتصام بمصر، 1978م، ص162
- 4 المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط2، 1958م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص57
- 5 السيوطي جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، ص129
- 6 نظر: السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص75
- 7 الأنصاري، أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص، هـ
- 8 المصدر نفسه، ص، هـ
- 9 الأنصاري أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص، هـ، ص178، ص102
- 10 الحديثي، خديجة، موقف سيوييه من القراءات والحديث، مجلة كلية الآداب العراقية، العدد الرابع عشر سنة 1970-1971م، ص214
- 11 الأنصاري أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص158
- 12 المصدر نفسه، ص هـ
- 13 أبو المكارم علي، مدخل إلى تاريخ النحو، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م، ص115
- 14 أنظر: المخزومي مهدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، طبعة الزهراء بغداد، 1960م، ص39
- 15 الأنصاري أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص، ج د، ص11
- 16 الزعبلوي، صلاح الدين، مع النحاة وما غاصوا عليه من دقائق اللغة وأسرارها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1992م، ص58
- 17 أنظر: الأنصاري أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص18
- 18 السامرائي إبراهيم، المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر، الطبعة الأولى، عمان، 1987م، ص23
- 19 الأنصاري أحمد مكّي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص2

- 20 انظر: حضر موسى محمد محمود، النحو والنحو المدارس والخصائص، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2003م، ص251
- 21 أنظر: الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص22، ص29، ص31، ص135
- 22 أنظر: الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين ص108، ص62
- 23 الخثران عبد الله بن حمد، مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، 1993م، ص180.
- 24 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص31
- 25 سورة النساء الآية 01
- 26 انظر: ابن الأنباري أبي البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، 2002م، ص371
- 27 انظر: بكار عبد الكريم، أثر القراءات السبع في تطور التفكير النحوي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2014م، ص45
- 28 سورة البقرة، الآية 217
- 29 الأنصاري أحمد مكي، سبويه والقراءات دراسة تحليلية معيارية، دار المعارف، 1972م، ص249
- 30 الأنصاري، سبويه والقراءات دراسة تحليلية معيارية، ص235
- 31 مكرم عبد العال سالم، أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية، مؤسسة علي جراح الصباح، الكويت، ص78
- 32 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، دار المعارف، مصر، 1973م، ص4، ص41
- 33 الأنصاري، أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص7، ص10
- 34 انظر: بكار عبد الكريم، أثر القراءات السبع في تطور التفكير النحوي، ص46، ص47
- 35 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص26
- 36 المساعيد، إبراهيم سطعان عواد، الاستدلال بالقراءات القرآنية في كتاب الخصائص لأبي الفتح عثمان ابن جني الموصلي، ص25
- 37 الطويل السيد رزق، الخلاف بين النحويين، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1984م، ص164
- 38 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص61
- 39 المصدر نفسه، ص61
- 40 الأندلسي، أبوحيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تحقق صدقي محمد، جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، 349/7

- 41 المصدر نفسه، 349/7
- 42 بن زنجلة، أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1997م، 455/1
- 43 الألويسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، 533/8
- 44 ابن زنجلة، حجة القراءات، 454/1
- 45 الأنصاري، ابن هشام جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن مبارك ومحمد علي، دار الفكر، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1989م، 238/6
- 46 ابن قتيبة، الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص38
- 47 انظر: عبد الحميد حسن، القواعد النحوية مادتها وطريقتها، مكتبة العلوم مصر، الطبعة الثانية، 1952م، ص203
- 48 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص62
- 49 الأنصاري، ابن هشام جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 238/6
- 50 أنظر: الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص97، ص96، ص87، ص101
- 51 سورة الأنعام، الآية 137
- 52 بن مجاهد أبو بكر البغدادي، السبعة في القراءات، تحقق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1400هـ، ص270
- 53 الأزهرى، أبو منصور محمد الهروي، معاني القراءات للأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب جامعة الملك سعود السعودية، الطبعة الأولى، 1991م، 389/1، 388
- 54 عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، الطبعة الثامنة، 2003م، ص29
- 55 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص107
- 56 شوقي ضيف، لمدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، 1982م، ص270
- 57 السيرافي أبو سعيد المرزبان، شرح كتاب سيبويه، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2008م، 242/1
- 58 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص112
- 59 المصدر نفسه، ص114
- 60 الخثران عبد الله بن حمد، مراحل تطور الدرس النحوي، ص175

- 61 خديجة الحديشي، دراسات في كتاب سيبويه، وكالة المطبوعات الكويت، ص47
- 62 خديجة الحديشي، أبوحيان النحوي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد الطبعة الأولى، 1966م، ص417
- 63 حبيب عبد الله عبد النبي، حقيقة القراءات القرآنية في كتاب سيبويه، مجلة دراسات البصرة، السنة السابعة، 2012م، العدد14، ص14
- 64 الأنصاري أحمد مكي، سيبويه والقراءات، ص232
- 65 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص127
- 66 المصدر نفسه، ص172
- 67 بكار عبد الكريم، أثر القراءات السبع في تطور التفكير النحوي، ص50، ص51
- 68 انظر: طه محسن، الفصل بين المضاف والمضاف إليه، دار النايبع، سورية دمشق، الطبعة الأولى 2009م، ص20
- 69 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص118
- 70 المصدر نفسه، ص110
- 71 الأنصاري أحمد مكي، سيبويه والقراءات دراسة تحليلية معيارية، ص6
- 72 شوقي ضيف، المدارس النحوية، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1968م، ص6
- 73 الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ص22.
- 74 مكي الأنصاري، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص50
- 75 المصدر نفسه، ص116
- 76 محمد محمود حضر موسى، النحو والنحاة المدارس والخصائص، عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2003م، ص235
- 77 عبد الحميد حسن، القواعد النحوية مادتها وطريققتها، ص204
- 78 ابن الجزري، شمس الدين محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، تحقق علي محمد الضباع المطبعة التجارية الكبرى، ج1/34
- 79 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص73
- 80 الأنصاري أحمد مكي، سيبويه والقراءات، ص133، ص137، ص139
- 81 علي، أبو المكارم، مدخل إلى تاريخ النحو العربي، ص215
- 82 انظر: علي أبو المكارم، مدخل إلى تاريخ النحو العربي، ص188، ص189
- 83 الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص و
- 84 المصدر نفسه، ص124، ص159
- 85 أنظر: الأنصاري أحمد مكي، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، ص41، ص74، ص178

- 86 المساعيد إبراهيم سطعان عواد، الاستدلال بالقراءات القرآنية في كتاب الخصائص، ص22
- 87 أبو المكارم علي، مدخل إلى تاريخ النحو العربي، ص189
- 88 انظر: حسين أحمد بوعباس، موقف نخاة طور النشأة من الشاهد القرآني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، 2016م، ص12، ص18
- 89 عبد الخالق عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن الكريم، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، 1392هـ، ج1/19
- 90 الطويل السيد، الخلاف بين النحويين، ص166
- 91 المصدر نفسه، ص103، ص104
- 92 شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص157
- 93 أنظر: أبو مالك العوضي، صناعة الاستدلال اللغوي، ص121
- 94 أنظر: المصدر نفسه، ص122
- 95 الخثران عبد الله بن حمد، مراحل تطور الدرس النحوي، ص185